الإسلام دين التسامح (*)

لا شك أن بناء الأمم والحضارات يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالبناء الأخلاقي وكذلك انهيار أي أمة وأية حضارة فإنه يرتبط أيضًا ارتباطًا وثيقًا بالانهيار الأخلاقي ، ولقد جاء الإسلام برسالة سامية ، تدعو إلى الأخلاق والقِيَم وتؤسس لمجتمع نقي مترابط ، يتسم بنفوس زكية، وقلوب تقية ، وفطرة نقيّة ، وتؤصل هذه الرسالة قيم الحب والرحمة والألفة وفقه التعايش وقبول الآخر ، ومن هذه الأخلاق الجامعة (التسامح) .

وبالتأمل في هذا الخُلُق الجامع ، نجد أن له معانيَ وفيرة ؛ فهو يجمع بين ثناياه مجموعة من الأخلاق العظيمة ، مثل: قبول الآخر ، وسعة الصدر ، والعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ ، وعدم الغضب ، واللين ، والرحمة ، والتعاطف،

*) د/ أسامة فخري الجندي- باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

وتحقيق ثقافة الاختلاف ، وفقه الحوار ، والسلام ، والصفاء ، وغير ذلك مما يحمله التسامح من معانٍ أخلاقية رائعة.

ولقد أراد الإسلامُ تنميةَ روح الألفة والمودة ، ونبذ الصراعات والخلافات وتنقية الصدور وسلامتها من الأحقاد والبغض والكراهية ، وأداة تحقيق ذلك: التخلق بالتسامح ؛ لما له من دور فاعل في الأمن الاجتماعي وصيانة النفس الإنسانية عن أي أذى (فكري أو مادي أو معنوي أو نفسي) ، فبالتسامح تتحقق الألفة لا الفرقة ، وبالتسامح تتحقق ثقافة الائتلاف لا ثقافة الاختلاف ، وبالتسامح تتحقق ثقافة التدبير لا التبرير ، وبالتسامح تتحقق ثقافة التيسير لا التشديد ، وبالتسامح تتحقق ثقافة التدافع لا الصراع ، وبالتسامح تتحقق قيم الحب والاحترام لا قيم الكراهية والاحتدام ، وبالتسامح تتعمق قيم الرحمة لا القسوة .

فبالتسامح تسمو النفس إلى مرتبة أخلاقية رائعة تحقق تلك المعاني السابقة مع غيرها ، فما أطيبه من خلق كريم ،

إذا التزمت به النفوس انعكس ذلك على المجتمع ، فيصبح مجتمعًا نقيًّا صافيًا مترابطًا تسوده قيم الوحدة بكل معانيها.

وقد جعل الإسلامُ التسامحَ من المبادئ الرئيسة له ؛ إذ إنه يعبّر عن مقاصد النبوة ؛حيث قال الله تعالى:{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[الأنبياء :١٠٧] ، فرسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) كلها رحمة ولين .

ومن صور التسامح في الإسلام : (التعايش مع أصحاب الأديان الأخرى وإكرامهم والبر بهم) ، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨]، وقال أيضًا :{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة :٨٣]، فهذه الآيات مع غيرها تؤكد التسامح من حيث التعايش السلمي مع الآخر ، والمعاملة بالمعروف معهم ؛ مما يؤكد نفي التعصب والنظرة الدونية للغير .

وانظر جيدًا إلى هذا التطبيق العملي في عصر النبوة

وقبوله للآخر واستقباله لوفود نصارى نجران بتسامح رائع ، بل وأكرمهم (صلى الله عليه وسلم) بنفسه وقال : (إِنَّهمْ كَانوا لأصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ) (رواه البيهقي في دلائل النبوة). وهكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مترجِمًا حقيقيًّا لما جاء في النص القرآني .

وكذلك قَبِل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هديةً من المقوقس عظيم القبط ، وهي السيدة مارية التي أنجبت إبراهيمَ ولده (صلى الله عليه وسلم) ، ثمَّ وقف فقال (صلى الله عليه وسلم): (اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا).

ومن صور التسامح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما دخل مكة فاتحًا قَالَ : (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ اهْتِفْ بِالْأَنْصَارِ). قَالَ: (اسْلُكُوا هَذَا الطَّرِيقَ فَلَا يُشْرِفَنَّ لَكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَمْتُمُوهُ). فَنَادَى مُنَادٍ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ دَخَلَ دَارًا فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ). وَعَمَدَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ فَدَخَلُوا الْكَعْبَةَ فَغُصَّ بِهِمْ ،

وَطَافَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِجَنْبَيِ الْبَابِ فَخَرَجُوا فَبَايَعُوا النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى الْإِسْلَامِ ... فَقَالَ : (مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟) قَالُوا: نَقُولُ: ابْنُ أَخٍ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيمٌ رَحِيمٌ، قَالَ: وَقَالُوا ذَلِكَ ثَلَاثًا ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ:{لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٩٢]. قَالَ: فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ) (رواه البيهقي).

إن الإسلام جعل التسامح أصلاً في إرساء قيم الحب والعفو والترابط ، وأكّد على أن طريق التسامح هو مقابلة الإساءة بالإحسان ، ولننظر بعمق حين أغلظ الأعرابي على النبي (صلى الله عليه وسلم) وجذبه جذبة شديدة من ردائه، كيف قابل النبي هذه الغلظة في القول والفعل من الأعرابي بالتبسم والتسامح ؟ معلّمًا أمته كيف يكون التعامل مع الآخر ، وكيف نتعاون معه في أن نجتث منه حظ النفس

والشيطان ؟ وكيف نقوده إلى طريق المصافاة والمودة ، وكيف ندفع إساءة من أساء إلينا بالإحسان إليه ؟ كما قال ربنا جل وعلا :{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[فصلت :٣٤] ، وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: (كنت أمشي مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعليه برد نجراني (عباءة) غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه جبذة " أي جذبه جذبة قوية " حتى رأيت صفح عنق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أثّرت بها حاشية البرد من شدة جبذته (تركت الجذبة علامة على عنق الرسول) ، فقال: يا محمد أعطني من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء) (رواه أحمد)، وهكذا كان تسامح النبي (صلى الله عليه وسلم).

ولننظر إلى هذا التسامح العميق من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع سيد أهل اليمامة (ثمامة بن أثُال) الذي

كان يتوعّد بقتل النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكان يسارع إلى كل ما من شأنه أن يؤذي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقد أسره المسلمون وأتوا به إلى المدينة وشدّوه إلى ساريةٍ من سواري المسجد ، ولما خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد، وهمَّ بالدخول فيه ، رأى ثمامة مربوطاً في السارية فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، ولننظر هنا إلى قول النبيّ (صلى الله علي وسلم) لهذا الحاقد الذي أراد قتله (صلى الله عليه وسلم) حينما رأى ثمامة بن أثال مربوطاً إلى ساريةٍ من سواري المسجد، قال: أحسنوا إسارَه، أيْ: أحسنوا إلى هذا الأسير، بل وأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأن يؤتى الطعام من بيته لثمامة ، ثم يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال ثمامة : عندي يا محمد خير، فإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم علي بالعفو تنعم على شاكر، وإن كنت

تريد المال فسَلْ تُعطَ منه ما شئت) ثم جاءه ثانيةً ، قال: (ما عندك يا ثمامة؟ – مرة ثانية – قال: ليس عندي إلا ما قُلت لك من قبل) فتركه النبيّ (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان في اليوم التالي، جاءه فقال: (ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال، أعطيتك منه ما تشاء ، فالتفت النبيّ (صلى الله عليه وسلم) إلى أصحابه، وقال: أطلِقوا ثمامة ، وفكُّوا وثاقه وأطلقوه) (متفق عليه) ، ولعل هذا هو الصفح الجميل الذي أمر به الحق سبحانه بقوله : {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}[الحجر: ٨٥] .

ثم غادر ثمامة مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومضى حتى إذا بلغ نخلاً من حواشي المدينة، وعندها اغتسل ، وعاد إلى النبي ليبايعه ويدخل الإسلام ، وما كان هذا إلا بالتسامح والرحمة .

وقد سار الصحابة (رضي الله عنهم) على منهج رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) ، فهذا هو عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يضرب لنا أنموذجًا عمليًّا في التسامح ، مطبقًا ما تعلمه على يد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فلما جاء عيينة بن حصن إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو من هو في مهابته ، فيقول: (يا ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر (رضي الله عنه) . فقال بعض الحضور: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩] ، فوالله ما جاوزها عمر (وكان وقَّافًا عند حدود الله)، ما قال له شيئاً، حتى العتاب ما عاتبه، إنما قرأوا الغضب في وجهه (رضي الله عنه).

وحتى نستطيع أن نحقق قيمة التسامح بيننا ، فلا بد من سلامة الصدور من الأحقاد والكراهية والحسد والبغض وجميع منغصات الحياة لتنعكس معاني الرحمة بين الناس ، فيكون الود والرحمة بينهم فتتأسس الأمة على التسامح .

ولقد جعل الإسلام لكل من تخلق بخلق التسامح ثوابًا عظيمًا وفيرًا ؛ لأنه بتسامحه قد كظم غيظه وعفا عمن ظلمه ، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[آل عمران : ١٣٣-١٣٤] .

قال الطِّيبي : (وإنَّما حُمِد الكَظْم ؛ لأنَّه قَهْر للنَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ولذلك مدحهم الله - عز وجل- بقوله: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}[آل عمران: ١٣٤]، ومن نهى النَّفس عن هواه، فإنَّ الجنَّة مأواه والحور العين جزاؤه ، وهذا الثَّناء الجميل، والجزاء الجزيل إذا ترتَّب على مجرَّد كَظْم الغَيْظ، فكيف إذا انضَمَّ العَفو إليه ، أو زاد بالإحسان عليه) (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه ، عن

النَّبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (مَنْ كَظَمَ غَيظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ ، دَعَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أيِّ الحُورِ العِينِ شَاءَ) (رواه أَبو داود) .

فما أطيب الهدي الصالح باتباع أخلاق النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وترجمة تلك الأخلاق إلى واقع مجسد مشاهد .